الفصل الثانى

لا تطبخ الجـدى فى لبن أمــه

من الطبيعى أن يفاجأ القــارىء عندما يجد بين وصــايا الرب المقدسة التى جهر بها للاسرائيليين القدماء ، الوصية الثالثة « لا تطبخ جديا بلبن أمه » • ولن تقل دهشـة القارىء عندما يدرس بعناية فقرة من الفقرات الثلاث التى دونت فيها هــذه الوصية ، بل ان دهشته تبلغ عند ذاك ذروتها • ذلك أنه يبدو أن نص هذه الفقرة يشير ، كما سبق أن ذكر ذلك بعض النقاد المرموقين ، وهم جوته ومن سبقه ، أن هــذه الوصية كانت فى الحقيقة احدى الوصايا العشر الرئيســية • وهــذه الفقرة تقع فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • فهناك فى هذا الاصحاح حكاية تشير الى أن الرب قد أوحى الى موسى مرة أخرى بالوصــايا العشر ، بعــد أن حطم موسى الألواح الحجرية الأولى التى كانت قد كتبت عليها الوصايا لأول مرة ، وذلك عندما ثار على قومه بسبب عبادتهم للأوثان • ومن ثم فان الوصايا التى تقــدم فى هــذا الاصحاح هى نسخة ثانية من الوصايا العشر الأولى • ومما يؤيد هذا القــول ويبعــده عن كل شك تلك الآيات التى ترد قبــل وبعــد تقديم الوصايا • ويبــدأ هذا الاصحاح على النحو التالى : « ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين • فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما » • (ســفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون الآية الأولى) • ثم يتبع هذا حكاية مقابلة الرب لموسى فوق جبل سيناء واملائه موسى الوصايا العشر مرة أخرى • حتى اذا أتينا الى قرب نهاية الاصحاح فاننا نقرأ : « وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات ، لأننى بحسب هذه الكلمات

قطعت عهدا معك ومع اسرائيل • وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء • فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشرة » • (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ٢٧ ــ ٢٩) • وقد لا يتطرق الينا شك بعد ذلك فى أن كاتب هذا الاصحاح يقصد بالكلمات العشر ، وصايا موسى العشر ••

وهنا تبرز لنا مشكلة وهى أن الوصايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج ، وهى تلك الوصايا التى نقرؤها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية • وفضلا عن ذلك فان الوصايا المدونة فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج التى هى موضوع بحثنا ، لم تدون على نحو ما دونت به الوصايا الأولى من ايجاز ودقة • بحيث أنه يمكن التمييز بين الروايتين تمييزا تاما • على أن مشكلة التمييز بين الروايتين لا تتضاءل بل هى بالأحرى تتزايد عندما نجد أن « كتاب العهد » الذى يعرفه النقاد المحدثون بوصفه أقدم مجموعة من القوانين التى تشتمل عليها أسفار موسى الخمسة ، يشتمل على رواية مزدوجة لهذه الوصايا • وبينما يضيف كتاب العهد صعوبة أخرى فى سبيل ازالة الابهام عن هذه الوصايا ، فان اشتماله على الرواية المزدوجة يقدم فى الوقت نفسه دليلا جديدا على أصالة الرواية القديمة للوصايا العشر التى تتضمن الوصية المعنية وهى : « لا تطبخ جديا بلبن أمه » •• ولا يختلف النقاد حول الرواية القديمة للوصايا العشر من حيث الكم ، ولكنهم يختلفون فحسب فى توضيح وصية أو وصيتين من تلك الوصايا كما يختلفون فى ترتيب الوصايا الأخرى • وفيما يلى عدد الوصايا التى قدمها ك • بودى فى كتابه (تاريخ الأدب العبرى) ، التى يعتمد فى سردها على نص الوصايا العشر كما وردت فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • ولكنه بالنسبة لوصية واحدة فضل رواية الوصايا العشر التى وردت فى كتاب العهد •

١ ــ لا تعبد من دونى الها آخر •

٢ ــ لا تصنع لنفسك آلة مسبوكة .

٣ ــ لى كل فاتح رحم .

٤ ــ ستة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه .

٥ ــ اجعل عيد الخبز غير المختمر فى الشهر الذى ينضج فيه الـــذرة .

٦ ــ وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيـــد الجمع فى آخر السنة .

٧ ــ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى .

٨ ــ ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح .

٩ ــ أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك .

١٠ ــ لا تطبخ جديا بلبن أمـــه .

وتتفق الوصايا التى عرضها « فيلهاوزن » من حيث العـــدد مع هذه الوصايا فيما عدا أنه حذف وصية : « ســـتة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه » ، كما أنه عرض وصية « وتصنع لنفســـك عيد جمع الحنطة فى آخر السنة » بوصفها وصية منفصلة عن الجزء الأول المرتبط بهـــا .

ويتفق الأستاذ ر .هـ كينيت بوجه عام مع « بودى » و «فيلهاوزن» فى عدد هذه الوصايا ، ولكنه يختلف عن « بودى » فى اعتبار وصية عيد حصاد الحنطة بوصفها وصية مستقلة ، كما يختلف عن « فيلهاوزن » فى صيغة وصية يوم الراحة الاسبوعى . كما يختلف معهما فى اعتماده على رواية الفصل الرابع والثلاثين من سفر الخروج . وها هى ذى نص الوصايا العشر عند « كينيت » ، وما نضعه بين الأقواس يعد زائدا عن رواية سفر الخروج .

١ ــ (أنا يهوه الهك) . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .

٢ ــ تحفظ عيد الفطير . سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك .

٣ ــ لى كل فاتح رحم وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بكرا من ثور وشاة .

٤ ــ يوم السبت لى . ستة أيام تعمل وأما اليوم السابع فتستريح فيه .

٥ ــ وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة . (أية ٢٢) .

٦ ــ وعيد الجمع (تحتفل به) فى آخر السنة .

٧ ــ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى . ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح .

٨ ــ (ولا يبيت شحم عيدى الى الغد) « سفر الخروج اصحاح ٢٣ آية ٢٥ » « سفر الخروج ــ الاصحاح ٣٤ الجزء الثانى من آية ٢٥ . ويقتصر ذلك على عيد الفصح » ..

٩ ــ أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك (آية ٢٦) .

١٠ ــ لا تطبخ جديا بلبن أمه (آية ٢٦) .

وأيا كانت الرواية التى نفضلها بين روايات الوصايا العشر ، فان اختلافها جميعا عن الرواية المعروفة لدينا ، يثير دهشتنا . ففى الروايات التى أشرنا اليها تختفى القيم الأخلاقية كلية . اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر ، أى أنها وصايا دينية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فهى تتعرض فى دقة وبطريقة تثير الشك الى صغائر الأمور . أما عن العلاقة بين الانسان والرب وبين الانسان والانسان ، فليس هناك شىء يذكر بهذا الصدد . وعلاقة الرب بالانسان وفقا لهذه الوصايا أشبه بعلاقة السيد الاقطاعى بأتباعه ، فهو يفرض عليهم أن يؤدوا له حقه ، بله أتفه مظاهر هذا الحق . ولكنه لا يهتم بعد ذلك بعلاقة هؤلاء الأتباع بعضهم ببعض ، طالما أن هذه العلاقة ليست لها صلة بالجزية التى يدفعونها له . وكم تختلف هذه الوصايا مع الوصايا الست التى تقع فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى : « أكرم أباك وأمك . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك

شهادة زور • لا تشته بيت قريبك • لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك » •

فاذا تساءلنا ، أى هاتين الروايتين المختلفتين للوصايا العشر أكثر قدما ، فان الاجابة عن ذلك لن تكون مثيرة للشكوك • وكم يقر بالنا اذا افترضنا ، معارضين فى ذلك الروايات المتشابهة ، أن الوصايا الأخلاقية التى كانت فى الأصل تكون جزءا من القانون القديم ، قد حذفت منه لتفسح المجال لوصايا تختص بمجرد اشارات الى شعائر بعينها • أليس من المحتمل على سبيل المثال أن وصية « لا تسرق » قد حذفت من الرواية الأصلية وحلت محلها وصية : « ولا يبيت شحم عيدى الى الغد » ؟ وان وصية « لا تقتل » قد استبدلت بوصية « لا تطبخ جدى بلبن أمه » ؟ • ولكن مجرى التاريخ البشرى جميعه لا يدعم هذا الفرض ، فكل الاحتمالات تؤيد ان الرواية الأخلاقية للوصايا العشر ، اذا تسنى لنا أن نسميها كذلك ، حيث أن الاتجاه الأخلاقى يكون أهم عناصرها ، كانت متأخرة عن الرواية الشعائرية • ذلك أن الاتجاه العام لتيار المدنية ، كان ولا يزال ، بل ونأمل أن يظل هكذا فى المستقبل ، ينحو نحو تأكيد سمو القيم الأخلاقية فوق الشعائر • وقد كان هذا التأكيد الدافع الأول لتعاليم الأنبياء العبريين أولا ، وتعاليم المسيح ثانيا • ومن ثم فاننا لن نكون مخطئين اذا افترضنا أن التغير الذى اعترى الوصايا العشر من الاتجاه الشعائرى الى الاتجاه الأخلاقى ، قد تم بتأثير أحد الأنبياء •

على أنه اذا جاز لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون لهذا الفرض فيما اعتقد ، ان الرواية الشعائرية للوصايا العشر هى أقدم الروايتين . فمازال علينا أن نتساءل : لماذا كانت وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه من الأهمية بمكان ، بحيث أنها احتلت مكانا فى قانون العبريين البدائى ، بينما استبعدت عن هذا القانون تلك الوصايا التى تبدو لنا أكثر أهمية بحق ، مثل تحريم القتل والسرقة والزنا ؟ « فهذه الوصية شكلت صعوبة فى طريق نقاد العهد القديم ، كما أنهم تعرضوا لتفسيرها

من وجوه نظر متعددة . فقد قيل أنه قلما يوجد فى التشريع الشعائرى بأسره قانون أصر عليه الاله أو أساء الناس استعماله كل الاساءة مثل قانون تحريم طبخ الجدى بلبن أمه . فمثل هذه الوصية التى حرص الرب أو المشرع بوجه عام على أن يطبعها فى أذهان الناس ، لهى جديرة منا بدراسة متأنية . واذا كان الشارحون قد فشلوا حتى اليوم فى تأكيد مغزاها الحقيقى ، فربما كان هذا يرجع الى وجهة النظر التى استخدموها فى تفسيرها . أو كان يرجع الى نقص المعلومات التى اعتمدوا عليها ، أكثر مما يرجع الى صعوبة حقيقية فى المشكلة نفسها . فالافتراض الذى لقى رواجا فى كل من العصور القديمة والحديثة والذى مؤداه أن هذه الوصية هى احدى الوصايا التى تدل على الانسانية المهذبة ، يتعارض مع فحوى الوصايا بوصفها كلا ، وهى تلك التى تتضمن هذه الوصية . فالمشرع الذى لم يلتفت قط الى مشاعر الناس ، كما يبدو هذا من سائر الوصايا العشر البدائية ، لا يبدو أنه قد التفت لمشاعر الأمومة عند النعاج ، ومن ثم فانه أولى لنا أن نتبنى وجهة نظر أخرى ، وهى أن هذا التحريم كان موجها ضد بعض الشعائر السحرية أو الوثنية التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها . وقد ساند هذا الرأى بعض الدارسين المرموقين ابتداء من « مايموندس الى « و . روبرتسون سميث » ، بوصفه أكثر الآراء احتمالا ، وأن كان هذا الرأى لا يرتكز على أى شاهد ايجابى ، حيث انه لا يمكن الاعتماد فى كثير أو قليل على عبارة ينقصها الدليل تروى عن كاتب مجهول عاش فى القرون الوسطى ، ويعد أحد أفراد الطائفة القرائية (١) . وقد ذكر هذا الكاتب « انه كان من عادة الوثنين القدماء ، عندما كانوا يجمعون المحصول ، أن يطهوا الجدى فى لبن أمه ، ثم يرشون اللبن على الأشجار والحدائق وبساتين الفاكهة ، بوصفه طقسا سحريا ، معتقدين بذلك أن هذه الأشجار تمنحهم مزيدا من الثمار فى العام التالى » . وربما كان هذا التفسير سليما طالما كان يشير الى تصور خرافى يعد

(١) مذهب يهودى نشأ فى بغداد فى القرن الثامن الهجرى قوامه رفض التمسك بسنة التلمود . (المترجمة) .

أساس هذا التحريم • ومن ثم يجـــدر بنا أن نتساءل عما اذا كان من الممكن اكتشاف ما يشبه هذا التحريم مدعما بالأسباب ، بين القبـــائل الرعوية البدائية التى تعيش فى العصر الحاضر ، ذلك لأنه يبدو من ظاهر هذا التحريم أنه ينتشر بين الشعوب التى تعتمد فى حياتها على تربية قطعان المـــاشية أكثر من تلك التى تعتمد على الزراعة •

ويبدو أن القبائل الرعوية التى تسكن فى أفريقيا تنفر فى العصر الحاضر من غلى ألبان ماشيتهم • وهذا النفور متمكن من نفوس الناس وينتشر فى الوقت نفسه على نطاق واسع • وهو يرتكز على الاعتقاد فى أن البقرة التى يغلى لبنها تكف عن ادرار اللبن بعد ذلك • بل وربما مات الحيوان نتيجة الحاق الأرواح الشريرة الأذى به ، اذا لم يتجنب هذا التحريم • كما أننـــا نرى أنه على الرغم من أن لبن الأبقار والزبد الذى يصنع من هذا اللبن يعدان الغذاء الرئيسى للمسلمين الذين يسكنون « سيراليون » وما جاورها من الأماكن ، فانهم يمتنعون عن غلى اللبن خوفا من أن يجف لبن البقرة التى أخـــذ منها هـــذا اللبن • بل انهم لا يبيعون اللبن لمن تعود أن يغليه • وتتبع قبيلة « بالوم » مثل هـــذا التحريم فيما يختص بالبرتقال ، فهم لا يبيعـــون البرتقال لمن يرمى قشره فى النار « لئلا يتسبب هذا فى اســـقاط الثمار التى لم تنضـــج بعد » • وهنا يبدو أن تحريم غلى اللبن عند الشعوب السالفة الذكر يرتكز على أساس السحر التعاطفى ؛ فهم يفترضون أن اللبن ، حتى بعد أن يحلب من البقرة يظل مرتبطا بالحيوان بعلاقة حية ، بحيث أن البقرة صاحبة اللبن تضار ، بدافع التعاطف بمثل الاساءة التى أسىء بها لبنها • ومعنى هذا أن غلى لبن البقرة فى الوعاء يساوى تماما غليه فى ضرعها ، وهذا من شأنه يجعل لبن البقرة يجف فى مكانه الطبيعى • وهذا التفسير تؤكده معتقدات المسلمين والمراكشيين ، وان كان هـــذا التحريم يقتصر على وقت محدد ، هو الوقت الذى يعقب ولادة العجل مباشرة • فهم يعتقدون أن « اللبن اذا غلى فوق النار فى تلك الفترة ، فان البقرة تصاب بمرض فى ضرعها ؛ أو أنها تكف عن ادرار اللبن أو أن

نسبة الدسم تقل فى لبنها • فاذا حدث أن سال اللبن الذى حلب من البقرة لأول مرة فى النار ، فانه من المحتمل أن يموت العجل أو تموت البقرة • وعند قبيلة « آيت ورياغل » يجب ألا يغلى لبن البقرة الذى حلب منها بعد ثلاثة أيام من ولادتها العجل ، ويظل غليه محرما حتى ينقضى أربعون يوما على الولادة • فاذا غلى اللبن فى هذه الفترة فانه من المحتمل أن تموت البقرة ، أو أن لبنها لا يعطى سوى كمية قليلة من الزبد » • وهنا نلاحظ أن تحريم غلى اللبن ليس تحريما كليـــا ، وانما يقتصر على فترة معينة بعد ولادة العجـــل ، يعتقد أن البقرة تكون فى أثنائها على علاقة تعاطفية مع عجلها ومع لبنها أكثر من أى وقت آخر • فالتحديد هنا اذن له مغزاه وهو يؤكد تفسير منع غلى اللبن بصفة عامة ، أكثر مما يضعفه • ويتأكد التفسير أكثر من ذلك من خلال الاعتقاد الخرافى فيما تصاب به الأبقار اذا ما سقط لبنهـــا فى النار • واذا حدث هذا فى الأوقات العادية فانه يعتقد أن البقرة أو لبنها يصاب بضرر • أما اذا حدث هذا بعد ولادة العجل بزمن قصـــير ، عندما يكون اللبن متجبنا كثيفا ، فانه من المتوقع ، وفقـــا للعقيدة ، أن يموت العجل أو تموت البقرة • ومن الواضح أن الفكرة فى ذلك أنه اذا سال لبن الحلبة الأولى بعد الولادة على النار فى مثل هذا الوقت الحرج فانه يماثل تماما سقوط البقرة نفسها أو عجلها فى النار وموت أحدهما حرقا • وهـــكذا تتمثل علاقة المشاركة بين البقرة وعجلها من ناحية ، وبينها وبين لبنها من ناحية أخرى • ويتضح مجرى هذا التفكير من خلال خرافة مشابهة لهذا تنتشر بين قبيلة « نورادجا » التى تسكن « سيليبيس الوسطى » فهذه القبيلة تستخدم نبيذ البلح على نطاق واســـع ، كما تستخدم رواسب الخمر خميرة فى طهى الخبز • ولكن بعض بطون القبائل ترفض استخدام هذه الرواسب من أجل الســـبب الذى يرفض الأوربيـــون استخدامها وهو الخوف من أن النخلة التى يستخلص النبيذ من ثمارها ، لا تقدم مزيدا من عصارات النبيذ ، ومن الممكن أن تجف اذا ما تعرضت رواسب الخمر للنار فى أثناء عملية طهيـــه • ويشـــبه تحريم تعريض رواسب الخمر للنار حتى لا تجف النخلة التى يســـتخلص من ثمارها

الخمر ، يشـــبه تماما تحريم تعريض القبائل الأفريقية اللبن لحرارة النار ، حتى لا يجف ضرع البقرة التى يحلب منها اللبن أو حتى لاتتعرض فى الحقيقة للموت • كما يشبه هذا أيضا معارضة قبيلة « بولوم » لرمى قشر البرتقال فى النار لئـــلا تحترق شجرة البرتقال التى جمـــع منها هذا البرتقال مشاركة للقشر المحترق فتسقط ثمارها أثر ذلك •

وعادة تحريم غلى اللبن خوفا من اصابة الابقار بأذى ، قاســـم مشترك بين القبائل الرعوية التى تسكن فى وسط افريقيا وشرقهـــا • فعندما قام « سبيك » و « جرانت » برحلتهما الشهيرة من زنجبار الى منابع نهر النيل ، مرا باقليم « أوكونى » الذى يقع جنوب بحـــيرة فيكتوريا نيانزا • وكان ملك البلد يعيش فى قرية « نوندا » ويملك ثلاثمائة بقرة حلوب • ومع ذلك فقد كانت مشكلة شراء اللبن تواجهنا كل يوم • وقد كنا نضطر الى غلى لبننا حتى نحتفظ به سليما خوفا من اليوم التالى • وقد كان الاهالى يعارضوننا فى غلى اللبن وفقـــا لعاداتهم ؛ ويقولون : « ان البقر سيكف عن ادرار اللبن ان فعلتم هذا » • وبالمثل يخبرنا « سبيك » أنه قد تسلم قدرا من اللبن من بعض نساء « داهوما » (باهيما) اللاتى قام بعلاجهن من رمد فى عيونهن • وهو يضيف الى ذلك قائلا : « على اننى لم أكن أتمكن من غلى اللبن الا سرا والا كفت الابقار عن ادرار اللبن بدعوى أن غلى اللبن يعـــد رقية أو سحرا تمرض بتأثيره الابقار ويجف لبنها » • وغلى اللبن عند قبيلة ماساى التى تسكن فى شرق افريقيا التى تعيش أو كانت تعيش على الرعى وعلى منتجات قطعان ماشيتها أو أبقارها « يعد اســـاءة شائنة يمكن أن تكون سببا كافيا لاعمال القتل فى قافلة من القوافل • ذلك أنهم يعتقدون أن غلى اللبن يتسبب فى أن تكف الأبقـــار عـــن ادراره » وبالمثل كانت تعتقد قبيلة « باجندا » التى تســـكن وســـط افريقيا أن غلى اللبن يجعل البقرة تكف عن ادراره • ولم يكن يسمح لأى فرد أن يغلى اللبن الا فى حالة واحدة هى : « عندما تحلب البقرة لأول مرة بعد أن تضع وليدها • يسلم اللبن للصبى المكلف بالرعى الذى

يحمله بدوره الى أى مكان فى المرعى حيث يطلع رفاقه من الرعاة على البقرة وعجلها • ثم يأخذ الصبى فى غلى اللبن ببطء حتى يجمد • وعندئذ يأخذ هو ورفاقه فى أكله » • وهذه القاعدة واستثناؤها تنتشر بين قبيلة « باهيما » أو « بانييانكولى » ، وهى قبيلة رعوية تسكن وسط افريقيا • « فاللبن لاينبغى أن يغلى حيث أن الغلى يضر بصحة الابقار ، وربما تسبب فى موت بعضها ولكنه يغلى لاستخدامه فى بعض الشعائر ، وذلك عندما يسقط الحبل السرى عند الوليد • ثم يصبح لبن البقرة الذى كان مقدسا حتى ذلك الوقت عاديا • فاللبن الذى يحلب من البقرة التى وضعت وليدها حديثا يعد محرما لعدة أيام حتى يسقط الحبل السرى عن العجل الوليد • وفى هذه الاثناء يرحل فرد من أفراد الاسرة ليشرب اللبن • ولكن عليه أن يراعى ألا يلمس لبنا يحلب من بقرة أخرى » • وكذلك « يعد اللبن الذى يحلب من البقرة فى الاسبوع الاول بعد ولادتها محرما » عند قبيلة « ثونجا » وهى قبيلة من قبائل البانتو وتسكن فى جنوب شرق افريقيا • فلا ينبغى أن يمزج بأى لبن يحلب من أبقار أخرى حيث ان الحبل السرى لم يكن قد سقط عن العجل الوليد بعد • ومع ذلك فمن الممكن أن يغلى اللبن وأن يشربه الأطفال ، حيث ان الأطفال يخرجون عن مجال التحريم • وبعد ذلك لا يغلى اللبن على الاطلاق ، لا لأن هناك شيئا محرما يخشونه ولكن لأنه ليس مألوفا • ولم يقدم الاهالى تفسيرا واضحا لمحرمات اللبن • ومن المحتمل أن قبيلة « ثونجا » قد نسيت الاسباب الرئيسية لهذه القيود المألوفة فى استعمال اللبن ، حيث ان بلادهم تقع فى الاقليم التابع للبرتغال ، وبالقرب من خليج « ديلاجوا » ، وكانت منذ قرون على صلة بالأوربيين • ومن الطبيعى بناء على ذلك أنها تعيش فى أحوال أقل بدائية من سائر قبائل وسط أفريقيا التى كانت تعيش حتى منتصف القرن التاسع عشر منعزلة كلية عن التأثير الاوربى • ولكننا عندما نقارن عادات هذه القبائل الرعوية التى احتفظت بأفكارها البدائية وعاداتها مع تغيير بسيط فيها نتيجة انعزالها ، بعادات قبيلة ثونجا ، فاننا ننتهى فى شىء من التأكيد أن

الدافع الرئيسى وراء تحريم غلى اللبن عند قبيلة « ثونجا » كذلك ، هو الخـوف من ايذاء الابقار التى تستمد منها اللبن عن طريق المشاركة السحرية .

فاذا رجعنا الى قبيلة « باهيما » التى تسكن فى وسط افريقيا ، فاننا نجدهم يصرحون بقولهم : « ان الاوربى اذا مزج اللبن بالشاى ، فانه يتسبب فى قتل البقرة التى تدر اللبن » . وتنتشر بين هذه القبيلة أفكار غريبة تتصل بدرايتهم بالأبقار وبطريقة التصرف فى ألبانها . فمن المألوف أن نسمع عن رجل يملك قطعيا من المائية أخبارا أسطورية مثل « رفض بقرة ما لادرار اللبن نتيجة غلى لبنها » . وهذه العبارة الاخيرة من المحتمل أنها تشير الى سوء فهم طفيف عن فكرة المواطنين حول هذا الموضوع . ولكننا نستطيع عن طريق المقارنة أن نحكم بأن هذه القبيلة تعتقد فى أن البقرة لن تكف عن ادرار اللبن ؛ لا لأنها لن ترضخ لذلك ، وانما لعدم قدرتها على ذلك ، حيث أن ضرعها يجف بتأثير الحرارة التى غلى فوقها لبنها . وكذلك نجد عند قبيلة « بانيورو » وهى قبيلة رعوية أخرى تسكن وسط افريقيا أن القاعدة هى : « ألا يغلى اللبن ولا يدفأ على النار خوفا من الاذى الذى يصيب القطيع على هذا النحو » . ومثل هذا يحدث بين قبيلة « صومالى » التى تسكن فى شرق افريقيا ، « اذ يحرم غلى لبن الجمال خوفا من اصابتها بالسحر . وتنتشر عادة تحريم غلى اللبن من أجل هذا السبب فيما يبدو ، بين الجاليين الجنوبيين الذين يسكنون المنطقة نفسها ؛ كما تنتشر بين قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق افريقيا ، وقبائل « الواجوجو » و « الواميجى » و « الواهومبا » التى كانت تعيش حتى زمن متأخر فى شرق افريقيا الالمانى . ومن بين القبائل التى تسكن السودان المصرى البريطانى ، يرفض الهاونداوانيون غلى اللبن وتشاركهم قبيلتا أرتيجا وأشرف هذا الفعل » وقد قيل ان مثل هذا الاعتقاد فى العلاقة التعاطفية بين « البقرة ولبنها الذى تدره يعيش بين بعض الشعوب المتأخرة فى أوربا حتى العصر الحاضر . فعندما

يغلى « الاستونيون » اللبن الذى تدره البقرة لأول مرة بعد الولادة يوضع خاتم من الفضة أو يوضع صحن أسفل وعاء الحلب قبل أن يجلب فيه اللبن • وهم يفعلون هذا « حتى يظل ضرع البقرة سليما ولا يفسد لبنها » • ويعتقد هؤلاء كذلك « أن اللبن اذا سال على النار فى أثناء غليه فان ضرع البقرة يصاب بمرض » • وبالمثل يعتقد مزارعو بلغاريا أن « اللبن إذا سال على النار فى أثناء غليه ، قلت كمية اللبن التى تدرها البقرة ، وربما كفت البقرة عن ادراره كلية » • وعلى الرغم من أنه ليس هناك اعتراض على غلى اللبن فى هذه الأحوال الأخيرة ، الا أن هذه الشعوب تتشاءم من تدفق اللبن فوق النار واحتراقه ، لأن اللبن المحترق ، وفقا لاعتقادهم ، يصيب البقرة صاحبة هذا اللبن بأذى ، اما عن طريق ايذاء ضرعها أو يحول بينها وبين ادرار اللبن • ولقد سبق أن رأينا أن الموريين فى مراكش يصطنعون بدقة مثل هذه الأفكار • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن هذا التصور الخرافى قد انتقل من مراكش الى بلغاريا ثم الى استونيا أو انتقل على العكس من استونيا الى بلغاريا ثم الى مراكش ، اذ أنه من الممكن أن تنشأ مثل هذه التصورات مستقلة فى هذه البلاد الثلاث فى شكل هذه القوانين الأولية نتيجة ترابط الافكار التى عرفتها العقول الانسانية جمعاء ، وهى تلك الافكار التى ترتكز على أساس الاعتقاد فى سحر المشاركة • وربما فسر مجرى هذا التفكير عقيدة الاسكيمو فى تحريم غلى الماء داخل البيت فى أثناء القيام بصيد سمك السلامون « لأن ذلك يضر بعملية الصيد » • ونحن نعتقد ، وان كنا لا نستند الى دليل فى هذا الاعتقاد ، أن غلى الماء فى البيت فى مثل هذا الوقت ، يؤذى السمك أو يفزعه وهو فى النهر ، وذلك عن طريق المشاركة ، وبذلك يضار صيدهم له •

وربما كان الدافع وراء الوصية العبرية القديمة وهى « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » ، هو الخوف المماثل لخوف تلك الشعوب من التأثير على موردهم الرئيسى فى الرزق • وقد نفهم من هذه الوصية أن

هناك اعتراضا ، وفقا لهذه النظرية ، حول طبخ الجدى فى أى لبن كان ، لأن أى نعجة يغلى لبنها تصاب بأذى سواء كانت هى أم جدى بعينه أم غريبة عنه • وربما كان السبب فى الحرص على ذكر لبن الام بصفة خاصة هو أن لبن الام بطبيعة الحال كان أكثر استخداما لهذا الغرض ، أو لأن ايذاء النعجة فى مثل هذه الحالة يكون مؤكدا أكثر منه فى أية حالة أخرى • فالنعجة فى هذه الحالة تكون على صلة تعاطفية مزدوجة مع جديها ولبنها اللذين أخرجتهما من أحشائها ، ومن ثم تكون معرضة للخطر المضاعف الذى تتعرض له النعجة الغريبة عن هذا الجدى ، فاما أن يجف لبنها أو تموت بتأثير الحرارة والغلى •

على أننا يمكننا أن نتساءل : « اذا كان التحريم يختص ببساطة بغلى اللبن فلماذا يذكر الجدى بصفة خاصة فى هذه الوصية ؟ » ربما أمدتنا عادة قبيلة « باجندا » ، ولا نقول نظريتهم ، بالجواب عن هذا السؤال • فمن المعروف أن اللحم المطهى فى اللبن عند هذه القبيلة يعد من الأطعمة المفضلة عندهم ، وأن الأولاد الأشقياء والأشخاص الآخرين الذين لا يلزمون أنفسهم بالمبادىء الخلقية ، ولا يفكرون الا فى متعهم الشخصية أكثر من التفكير فى ثروتهم الحيوانية ، يكافئون أنفسهم على اثمهم ، كلما استطاعوا خلسة أن يفعلوا ذلك غافلين المتاعب التى تصيب الأبقار والنعاج المسكينة نتيجة تجنبهم لهذا المحظور • وبناء على ذلك فربما كانت الوصية العبرية « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » موجهة الى مثل هؤلاء الأوغاد الذين كان يلعنهم الرأى الجماعى لأنهم يوجهون ضربة خطيرة لمصدر غذائهم الرئيسى • ولعل هذا يفسر لنا كيف أن غلى اللبن من وجهة نظر الشعوب البدائية الرعوية يعد جريمة أبشع من جريمة السرقة أو القتل ، لأنه بينما تصيب السرقة أو القتل بعض الأفراد بأذى ، فان غلى اللبن شأنه شأن تسميم الآبار ، يهدد القبيلة كلها ويحرمها من مورد غذائها الرئيسى • ربما كان هذا هو السبب فى أننا لا نجد أثرا فى الرواية الأولى للوصايا العشر العبرية ذكرا للوصيتين التاليتين : « لا تسرق » و « لا تقتل » ، ونجد محلهما وصية « لا تطبخ الجدى فى لبن أمه » ••

ويبدو أن فكرة علاقة المشـــاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه ؛ تفسر نظما أخرى معينة تنتشر بين القبائل الرعوية . ولم يفسر بعضها التفسير الكافى حتى اليوم • فاللبن هو الغذاء الرئيسى عنـد قبيلتى « دامارس » و « هيرورو » اللتين تستوطنان جنوب غـرب افريقيا • ولكن عند هاتين القبيلتين لا يغسل وعاء اللبن الذى يشربونه منه على الاطلاق ، لأنهم يعتقدون تماما أن البقرة تكف عن ادرار اللبن اذا ما غسل هذا الوعاء • ويبدو أن تفسير هذه العادة هو أن ازالة المـادة المتخلفة من اللبن فى الوعاء معناه ازالة البقية الباقية من اللبن من ضرع البقرة • فالقاعدة المتبعة عند قبيلة « ماساى » هى « انـه لا ينبغى حلب اللبن الا فى أوعية تصنع لهذا الغرض • ولا تغسل هذه الأوعية بالمـاء ، بل يـكتفى بتنظيفها برماد الخشـب للتـأكد من نظافتها » ••

وكما ان قبيلة « هيريرو » الرعوية تمتنع عن غسل وعاء اللبن بالماء مراعاة لسـلامة أبقارها ؛ كذلك تتجنب قبيلة « باهيما » الرعويـة غسل أجسامهم بالمـاء لهذا السبب نفسه • « فالرجال والنساء على السـواء لا يستحمون ، لأن الاستحمام يؤذى قطعان ماشيتهم وفقا لاعتقادهم ، ومن ثم فهم ينظفون أجسامهم بطريقة جافة وذلك عن طريق دهن أجسامهم بالزبد وتدليكها بالتراب الأحمر بدلا من استخدام المـاء . ثم يدهنون أجسامهم مرة أخرى بالزبد » • فاستعمال المـاء فى الاستحمام « يعرض القطيع بل الأسرة للأذى فيما يقال » ••

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تعتقد أن قطعان ماشيتها تتأثر بفعل المشاركة . لا عن طريق المادة التى تستخدم فى تنظيف أوعية اللبن فحسب . بل عن طريق المادة التى يصنع منها الوعاء كذلك • فقبيلة « باهيما » تحرم استخدام أى وعاء مصنوع من الحديد فى الحلب، وتستخدم بدلا من ذلك أوعية مصنوعة من الخشـب أو قشر القرع العسلى أو الطين • أما الأوعية الأخرى فقد يؤدى استخدامها فى حلب اللبن الى الاضرار بالماشية وقد يتسبب فى مرضها • « ولهذا فان أوعية

اللبن التى تستخدمها قبيلة « بانييورو » تصنع كلها على وجه التقريب من الخشب أو من القرع العسلى ؛ على الرغم من أنه من الممكن العثور على أوعية طينية فى الحظيرة التى يحفظ فيها اللبن » • وبالمثل « كانت كل أوعية اللبن عن وجه التقريب تصنع من الخزف ، والقليل منها كان يصنع من الخشب عند قبيلة « باجندا » ، كما أن الأهالى يرفضون استعمال الأوعية المصنوعة من الصفيح أو الحديد لأن استخدامها يؤذى الماشية » • أما عند قبيلة « ناندى » ، « فان الوعاء الوحيد الذى يسمح باستخدامه فى الحلب هو الوعاء المصنوع من قشر القرع • فاذا استعمل وعاء آخر فان هذا يعرض القطيع للضرر وفقا لاعتقادهم » • وكثيرا ما تتصور قبيلة « أكيكويو » « أن استخدام وعاء آخر غير الوعاء المصنوع من قشر القرع الذى يخالف تلك الأوعية المصقولة التى يستعملها الأوربيون فى حلب اللبن ، من شأنه أن يؤدى الى جفاف لبن الحيوان » ••

وقد تبالغ بعض القبائل الرعوية فى التعبير عن اعتقادها فى أن الأبقار على علاقة تعاطفية طبيعية مباشرة مع لبنها حتى بعد أن ينفصل عنها ؛ الى درجة أنها تتجنب مزج اللبن باللحم أو الخضر ، لأن مثل هذا المزج يسىء الى البقرة التى حلب منها اللبن • فقبيلة « ماساى » تحرص كل الحرص على أن تبعد اللبن عن اللحم ؛ لأنه وفقا للتصور العام الذى يسود بينهم ، أن مزج اللبن باللحم يصيب أضرع البقر صاحبة اللبن بالمرض ؛ فتكف بناء على ذلك عن ادرار اللبن • ومن ثم فهم نادرا ما يرضخون لاغراء بيع ألبانهم ، ولا يفعلون ذلك الا فى حذر بالغ ، لئلا يتسبب المشترى فى اصابة أبقارهم بالمرض ، اذا ما مزج لبنهم باللحم • ومن أجل هذا السبب نفسه فانهم يتجنبون الاحتفاظ باللبن فى وعاء سبق أن طهى فيه لحم ؛ كما لا يوضع اللحم فى وعاء يستخدم فى حلب اللبن • ومن أجل هذا فاننا نجدهم يمتلكون مجموعتين مختلفتين من الأوعية تعزل عن بعضها بعضا لهذا السبب • وتتفق قبيلة « باهيما » مع قبيلة « ماساى » فى معتقداتها وممارساتها • فقد شاء ضابط ألمانى كان

يحسكر فى بلادهم ، أن يستبدل بأحد أوعية طهيه وعاء من أوعيتهم التى تستخدم فى حلب اللبن • ولكنهم رفضوا ذلك بدعوى أن اللبن اذا صب فى الوعاء الذى سبق أن طهى فيه اللحم ، ربما تسبب فى موت البقرة صاحبة اللبن •

ولا تحرص هذه القبائل على ألا تخلط اللبن فى وعاء سبق أن طهى فيه اللحم فحسب ، بل تحرص على ألا تخلطه كذلك فى أمعاء الانسان ، لأن الخطر فى هذه الحالة يتهدد البقرة كذلك • وكذلك تحرص القبائل الرعوية التى تعيش على ألبان قطعان ماشيتها وعلى لحمها على ألا تأكل اللحم وتشرب اللبن فى آن واحد • وانما هم يفصلون بين شرب اللبن وأكل اللحم أو العكس بفترة زمنية • بل انهم فى بعض الأحيان يأخذون دواء مسهلا لينظف معدتهم من أحد الطعامين حتى يتمكن الانسان من تناول الطعام الآخر • ومثال هذا « أن غذاء قبيلة الماساى يتكون من اللحم واللبن فحسب • وبينما يخصص لبن الأبقار للرجال المحاربين ، تشرب النساء لبن الماعز • ويعد من قبيل الاساءة البالغة أن يشرب الشخص اللبن (الذى لا يسمح بغليه) ويأكل اللحم فى آن واحد • ومن ثم فان المساايين يعيشون عشرة أيام على اللبن وحده ثم يأكلون اللحم وحده عشرة أيام أخرى • وهم يراعون عدم اختلاط الطعامين فى المعدة الى درجة أنهم يتناولون بين الفترتين دواء مسهلا » • وهذه العادة نفسها تفرض على المحاربين ، فهم لا يأكلون سوى اللبن والعسل مدة تتراوح بين اثنى عشر يوما ، ثم لا يأكلون سوى اللحم والعسل مدة أخرى مماثلة • وفى أثناء الفترتين يأخذون مسهلا قويا يتكون من مزيج من الدم واللبن يجعلهم يتقيأون الطعام كما يسبب لهم الاسهال وذلك لكى يتأكدوا من عدم وجود فضلات من الطعام الأول فى أمعائهم • وهكذا نرى مدى حرصهم فى ابعاد اللبن عن الدم واللحم • وقد قيل لنا بصراحة انهم لا يفعلون ذلك مراعاة لصحتهم بل مراعاة لقطعان ماشيتهم ، لأنهم يعتقدون أن لبن الأبقار يقل اذا لم يفعلوا هذا • فاذا شعر فرد من قبيلة « ماساى » على غير العادة برغبة فى أكل اللحم وشرب اللبن فى يوم واحد ، فانه يزج بعود من الحشائش فى حلقه مراعاة

منه فى تجنب الشر ، وبذلك يتقيأ الطعام الأول ويتمكن من أكل الطعام الثانى • وعلى نحو هذا لا تشرب قبيلة واشامبا اللبن وتأكل اللحم فى وجبة واحدة ، اذ أنهم يعتقدون أن هذا يسبب الموت المباشر للبقرة التى أخذ منها اللبن • ومن ثم فانهم لا يرغبون فى بيع اللبن الى الأوربيون خوفا من أن يتسبب المشترى الجاهل أو الطائش فى قتل الحيوان اذا ما اختلط اللبن باللحم فى معدته • وقبيلة باهيما قبيلة رعوية تعيش أساسا على ألبان قطعان ماشيتها • ولكن زعماءها وأثرياءها يخلطون اللحم بوجبة اللبن وإن كانوا « لا يأكلون لحم البقرة وحده أو أى لحم آخر الا فى المساء ، ثم يشربون الجعة بعد ذلك • وهم لا يأكلون أى نوع من الخضر مع لحم البقر كما يتجنبون شرب اللبن بعد أكل اللحم لبضع ساعات • وأحيانا يشربون اللبن فى الصباح بعد تناولهم وجبة اللحم فى المساء • ذلك أنهم يعتقدون اعتقادا راسخا أن الأبقار تتعرض للموت اذا ما اختلط اللبن باللحم والخضر فى المعدة » • وبالمثل تمتنع قبيلة « بانيورو » عن شرب اللبن مدة اثنتى عشرة ساعة بعد وجبة اللحم والجعة • وهم يقولون أن هذه الفترة ضرورية ، « لأن تناول الطعام المختلط يتسبب فى اصابة الماشية بالمرض » • « ولا يؤكل اللحم ويشرب اللبن معا » عند قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق أفريقيا البريطانى• فاذا شربوا اللبن فانهم لا يأكلون اللحم طوال أربع وعشرين ساعة • كما انهم يأكلون أولا اللحم المطهى فى الحساء ثم يأكلون بعد ذلك اللحم المشوى ، وبعد ذلك يمتنعون عن شرب اللبن مدة اثنتى عشر ساعة وبعدها يشربون الماء المذاب فيه الملح • فاذا لم يكن الملح يستخرج من مستنقع مائى متوافر فانهم يشربون الدم بدلا منه • ويشذ الأطفال الصغار عن هذا النظام وبالمثل الأولاد والبنات الذين أجريت لهم عملية الطهارة منذ وقت قريب ، وكذلك النساء اللاتى وضعن أطفالا قبل ذلك بزمن قصير ، كما يشذ عنه الذين يعانون من مرض شديد • فكل هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم « بيتوريك » يسمح لهم بأكل اللحم وشرب اللبن فى آن واحد • أما اذا شذ أحد غير هؤلاء عن هذا النظام ، فانه يجلد فى غير هوادة ولا رحمة » • وبالمثل يحرم شرب اللبن وأكل اللحم فى

آن واحد عند قبيلة «سوك» الرعوية التى تقطن شرق أفريقيا البريطانى. وعلى الرغم من أن الكتاب الذين سجلوا عادات قبيلتى « ناندى » و « سوك » الخاصة بهذا الموضوع لم يشيروا الى سبب هذا التحريم . الا أن مقارنة عادات هذه القبيلة بعادات القبائل السالفة الذكر ، تتيح لنا آن ندعى فى شىء من الثقة ، أن الدافع وراء تحريم آكل اللحم وشرب اللبن فى آن واحد بين قبيلتى « ناندى » و « سوك » ، هو الخوف من أن اختلاط الطعامين فى معدة الآكل يمكن أن يعرض الأبقار للأذى ، ان لم يكن للخطر .

وما تزال تنتشر مثل هذه العادة التى تدعو الى الفصل بين اللحم واللبن فى المعدة عند الاسرائيليين فى أيامنا هذه ، وان لم تراع مثل هذه الصرامة فى اتباعها . فاليهودى الذى يأكل اللحم أو يشرب حساءه ، لا ينبغى عليه أن يأكل الجبن أو أى شىء آخر من مستخرجات الألبان مدة ساعة بعد أكل اللحم . وهناك أوعية خاصة لكل منهما ، وكل مجموعة من الأوعية تعلم بعلامة خاصة ، ومن ثم فان الوعاء الذى يستخدم فى اللبن لا يستخدم فى طهى اللحم . بل انهم يعزلون السكاكين التى تستخدم فى قطع اللحم عن تلك التى تستخدم فى قطع الجبن أو السمك . وفضلا عن ذلك ، فان اللبن لا يطهى مع اللحم على موقد واحد ولا يوضعان على المائدة فى آن واحد . بل ان غطاء المنضدة يغير عند وضع الطعام الآخر عليها . فاذا كانت الأسرة فقيرة ولا تمتلك سوى غطاء واحد للمنضدة ، فانه ينبغى عليها على الأقل ، أن تغسل هذا الغطاء قبل أن تضع عليه اللبن بعد أن سبق لها أن وضعت عليه اللحم . وهذه الأحكام التى حاكت حولها المهارة الحاخامية تشكيلية من التفريعات الدقيقة ، قد استمدت صراحة من وصية تحريم طبخ الجدى فى لبن أمه . وقد لا يساورنا شك فى ضوء هذه الشواهد التى جمعت فى هذا الفصل فى أن هذه القواعد والوصية المتصلة بها تنتمى مجتمعة حقا الى جزء من الارث المألوف الذى انتقل الى اليهود منذ الزمن الذى كان يعيش فيه أجدادهم حياة الرعى ، ويعتمدون أساسا فى غذائهم على

ألبان مواشيهم ، ومن ثم كانوا يراعون سلامة هذا الغذاء من أن يلحق به أذى ، كما تفعل قبائل أفريقيا الرعوية فى عصرنا هـذا .

على أن اختلاط اللبن باللحم لا يمثل الخطر الوحيد الذى تسعى قبائل افريقيا الرعوية أن تتجنبه خوفا على قطعان ماشيتها باتباعها القواعد المذكورة فى نظام الأكل . وانما هم يخشون كذلك من اختلاط اللبن بالخضر ، ومن ثم فهم يتجنبون شرب اللبن وأكل الخضر فى آن واحد ، لأنهم يعتقدون أن المزج بين الطعامين فى المعدة يمكن أن يؤذى القطيع بشكل أو بآخر . فقبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى « أنكولى » « تحرم أكل أنواع مختلفة من الخضر ، مثل البقول والفاصوليا والبطاطا ، على أى فرد من أفرادها ، ما لم يقض فترة صوم تبلغ بضع ساعات بعد أكل الخضر ، وقبل تناول اللبن . فاذا دفع الجوع شخصا لأن يأكل الخضر ، فانه يتحتم عليه أن يصوم بعض الوقت بعد أكلها . ويفضل أن يأكل فى هذه الحالة نبات « النب » . ومع ذلك يتحتم عليه أن يصوم مدة تتراوح بين عشر ساعات واثنتى عشرة ساعة قبل أن يشرب اللبن مرة أخرى . فشرب اللبن فى أثناء وجود الخضر فى المعدة يؤذى صحة الأبقار وفقا لاعتقادهم » . ومثل هذا يتبع عند قبيلة « بايرو » التى تسكن فى « انكولى » ، « والتى تعتمد فى غذائها على البطاطا والفول السودانى . فهم لا يسمحون بشرب اللبن حيث أنه يؤذى الماشية » وعندما كان « سبيك » يقوم بجولته بين قبيلة « باهيما » أو « واهوما » ، كما يسميها ، لاحظ المشقة التى يعانيها الناس من جراء هذا التشكك . فعلى الرغم من وفرة قطعان الماشية عندهم ، فان الناس لم يقدروا على بيع ألبانهم لنا لأننا كنا نأكل الدجاج ونوعا من البقول يسمى «ماهاراجو» . « فمنذ دخلنا « كاراجو » ، لم نستطيع أن نحصل على قطرة من اللبن لا بطريق ودى ولا بأى ثمن . ولقد رغبت فى أن أتعرف على الدافع وراء اصرار قبيلة واهوما على هذا الفعل ، فعلمت أن هناك خوفا خرافيا يتملكهم من جراء بيع اللبن . فكل من أكل لحم الخنزير أو السمك أو الدجاج أو البقول التى تسمى « ماهاراجو » ، ثم

تذوق بعد ذلك منتجات أبقارهم ، فانه يعرضها للخطر » • وقد أجاب ملك البلد على تساؤلات « سبيك » فقال : « ان الفقراء وحدهم هم الذين يعتقدون ذلك • ولما رأى أننا فى حاجة الى اللبن خصص لنا بقرة من أبقاره لكى تمدنا باللبن • وفى قبيلة « بانييورو » ، « تحرص الطبقة المتوسطة التى تقتنى الأبقار وتعمل كذلك بالزراعة ، كل الحرص فى نظام أكلهم على عدم أكل الخضر وشرب اللبن فى آن واحد • فالذين يشربون اللبن فى الصباح لا يأكلون أى طعام آخر حتى المساء • والذين يشربون اللبن فى المساء ، لا يأكلون أى نوع من الخضر حتى اليوم التالى • وهم يتجنبون أكل البطاطس والبقول بصفة خاصة • وكل من يأكلهما يمتنع عن شرب اللبن مدة يومين • وهم يفعلون هذا لكى يبعدوا اللبن عن اللحم أو الخضر فى المعدة • فالطعام المختلط ، وفقا لاعتقادهم، يصيب قطعان الماشية بالمرض » • ومن ثم فان هـذه القبيلة « لا تقدم اللبن للزائر القريب أثناء زيارته للحظيرة ، لأنه ربما كان قد أكل من قبل بعض أنواع الأطعمة المحرم مزجها باللبن ، فتصاب الماشية بالضرر ، اذا لم يكن هـذا الشخص قد تخلص من بقايا الخضر فى معدته • ولكنهم يعبرون عن كرمهم للزائر بأن يقدموا له طعاما آخر مثل الجعة ولحم البقر ، حتى تكون معدته معدة لشرب اللبن فى صباح اليوم التالى • فاذا لم يكن فى الحظيرة لبن يكفيهم ، فان بعضهم يأكل الخضر فى المساء ويصوم عن شرب اللبن حتى صباح اليوم التالى • فاذا لم تكن هناك خضر ، فانهم يأكلون البطاطا • ومن الضرورى بعد هذا أن يمتنعوا عن شرب اللبن مدة يومين بعد أكل البطاطا حتى تصبح المعدة خالية منها تماما قبل أن يسمح لهم بشرب اللبن » • ويحرم أكل الخضر كلية فى هذه القبيلة على الرعاة لأن تناولهم لها كما يقولون ، يعرض صحة القطيع للخطر أكثر من الأفراد العاديين ، نظرا لاختلاطهم الدائم بالقطيع ، وذلك اذا اختلط طعام باللبن فى معدتهم • ومن ثم كان من الحكمة أن يملى هـذا النظام تحريم أكل الخضر كلية على الرعاة •

وعند قبيلة « باجندا » « لا يسمح لأى شخص أن يأكل البقول

أو يمص قصب السكر أو يشرب الجعة ، أو أن يدخن الدخان الهندى ، ثم يشرب اللبن فى الوقت نفسه • فالشخص الذى يشرب اللبن يصوم عن الطعام عدة ساعات قبل أن يسمح له بأكل الطعام المحرم • ولا يسمح له بشرب اللبن فى نفس المدة بعد تناوله لهذه الأطعمة » • والرجل فى قبيلة « سوك » الذى يمضغ الدخن البرى ، يمتنع عن شرب اللبن مدة سبعة أيام • ومما لا شك فيه أن هذا التحريم عند هاتين القبيلتين، وأن لم يقرر هذا صراحة ، سببه التأثير الضار الذى تتعرض له الماشية نتيجة اختلاط الأطعمة فى المعدة • وبالمثل فان قبيلة « ماساوى » التى تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها وتخشى عليها من الضرر ، وتعتقد كل الاعتقاد فى أن الحيوان يصاب بأذى اذا ما غلى لبنه أو شرب مع اللحم ، تحرم على المحاربين كلية أن يأكلوا الخضر • وأولى للمحارب فى هذه القبيلة أن يموت جوعا من أن يأكل الخضر • بل إن تقديم الخضر له يعد اهانة بالغة له • فاذا نسى المحارب وتذوقه ، فانه يمتهن كل الامتهان ولا تقبل أية امرأة أن تتخذه زوجا لها •

ولا تشجع الشعوب الرعوية التى تعتقد فى أن أكل الخضر يهدد ثروتهم الأولى من حيث انه يقلل مئونتهم من اللبن أو يمنعها عنهم ، على ممارسة الزراعة • وبناء على ذلك فليس غريبا أن نعلم « أن الزراعة فى « بونورو » يتجنبها من يشتغل بالرعى • واذا قامت زوجة رجل ينتمى الى بطن من بطون قبيلة تشتغل بالرعى بفلاحة الأرض ، فانها تعرض نفسها للايذاء ، لأنها تعرض القطيع للخطر » • ومن ثم فان النساء فى البطون الرعوية فى هذا البلد ، « لا تعمل شيئا خلاف القيام بحلب اللبن وغسل أوعية اللبن ، ذلك لأن العمل اليدوى يعد عملا وضيعا من وجهة نظرهم • كما أن فلاحة الأرض بصفة خاصة تؤذى قطيعهم » • وحتى عند قبيلة « باجندا » الذين يفلحون أرضهم بجد نظرا لعنايتهم بتربية القطيع ، لا يسمح للمرأة أن تفلح حديقتها فى الأربعة الأيام الأولى بعد ولادة بقرة من أبقار زوجها • وعلى الرغم من أن سبب المنع لم يذكر ، فانه يمكننا فى ضوء الشواهد السالفة

أن نستخلص أن الدوافع وراء الامتناع عن فلاحة الأرض هو الخوف من أن المـرأة تعرض العجل وأمه للمرض ، بل للموت ، اذا فلحت الأرض فى هذه الأيام .

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تمتنع عن أكل لحـم بعض الحيوانات المتوحشة بناء على سبب ضمنى أو صريح ، هو أنهم اذا أكلوا لحم هذه الحيوانات ، فان مواشيهم تصاب بأذى . ومثال ذلك : « هناك خرافة تنتشر انتشارا قويا بين قبيلة « سوك » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، تتلخص فى أن أكل لحم فى خنزير برى معين يسمى . « كيبتورينى » يترتب عليه أن يجف لبن قطيع الرجل الذى أكل من لحم الخنزير . على أن هذه الخرافة لا تعيش الا بوصفها رواية شعبية فى السهول التى لا تعيش فيها الخنازير » . وتعتقد هذه القبيلة نفسها أنه« اذا أكل رجل غنى سمكا ، فان لبن قطيعه يجف » . وعند قبيلة « ناندى » : « لايجوز أكل لحم حيوانات بعينها ، اذا كان من الممكن الحصول على طعام آخر . وهذه الحيـوانات هى ظبـى المستنقعات وحمار الوحش والفيل . والكركدن (الخرتيت) والمهـا السنغالى ، والريم الافريقى العادى والأزرق . فاذا أكل أحد أفراد هذه القبيلة لحم أحد هذه الحيوانات . لا يسمح له أن يشرب اللبن مدة أربعة أشهر على الأقل . وبعد أن يتناول دواء مسهلا مستخلصا من شجرة « سيجيتيت » ، بعد مزجه بالدم . « ويستثنى من هذه القبيلة عشيرة « كيباسيسو » ، فأفراد هذه العشيرة يطلقون لانفسهم العنان فى شرب اللبن فى اليوم التالى من أكل لحوم هذه الحيوانات الطاردة . ومن بين هذه الحيوانات التى تسمح قبيلة « ناندى » بأكل لحمه فى حدود معينة ، هو الظبى الذى يعد حيوانا نجسا . وهم يطلقون عليه اسـم « شيماكيموا » . ومعناه « الحيوان الذى لا يجوز أن يتحدث عنه » . ومن بين أنواع الطيور البرية التى ينظر اليها نظرتهم الى الظبى ، طائر الدراح . حقا انهم يأكلون لحم هذا الطائر ولكنهم لا يأكلونه بعد شرب اللبن الا بعد مضى عدة شهور . ولم تذكر أسباب

لهذه القيود ، ولكنه يحق لنا ، فى ضوء الشواهد السالفة أن ندعى بشىء من الثقة ، أن الامتناع عن تناول اللبن شهورا عدة بعد أكل هـــذه الحيوانات أو الطيور البرية ، هو الخوف على الأبقار ، اذا ما اختلط لبنها بلحوم هذه الحيوانات والطيور فى معدة الأكل • وربما كـان هذا الخوف نفسه هو الذى يقف وراء انتشار تلك العادة بين قبيـلة « واتاتورو » التى تسكن فى شرق افريقيا • فاذا تناول رجل من هذه القبيلة لحم بقر وحشى معين (يسمى بوفو بلغة السواحلى) فلا يجوز له أن يشرب اللبن فى اليوم نفسه •

وربما كان من الواجب علينا أن نتعمق البحث أكثر من هذا ونتساءل عما اذا كان سبب امتناع بعض القبـائل الرعـوية عن أكل لحـوم الحيوانات الطاردة بصفة عامة أســاسه الخوف الخـرافى من ايذاء القطيع عندما يختلط اللبن بلحم الحيوانات المتوحشة فى المعدة فى أثناء عملية الهضم • فقبيلة « ماساى » ، على سبيل المثـال ، وهى قبيلة تشتغل أصلا بالرعى فحسب ، وتعيش كلية على لحوم الماشية ودمها وألبانها ، تزدرى ، كما قيل ، أى نوع من لحم الحيوانات الطـاردة كما تزدرى لحم السمك والدجاج • وقد قيل كذلك ان قبيلة ماساى لم تكن تأكل أى نوع من لحوم الحيوانات المتوحشة فى الزمن القديم ، عندما كان جميع أفرادها يمتلكون قطعانا من المـاشية • ولكن بعضهم بدأ يأكل لحم الغزال ، بعد أن فقد ماشيته » • ولمـا كانوا يمتنعون عن أكل لحوم الحيوانات الطاردة ، واقتصروا فى صيدهم على الوحوش أكلة اللحم كتلك التى كانت تفترس ماشيتهم ، فان قطعان الحيوانات المفترسة آكلة العشب أخذت تنتشر انتشارا يستلفت النظر فى ربوع بلاد المـاسايين ، ومن ثم أصبح من المـألوف رؤية البقرة الوحشية وحمار الوحش والغزال وهم يرعون فى أمان بين الماشية بالقرب من حظائر الماسيين ، دون أن تبدى الماشية أى فزع • وعلى الرغم من أن قبيلة المـاساى فى العموم لم تكن تصيد الحيوانات المفترسة أو تأكل لحومها ، فانها كانت تستثنى من هذه القاعدة حيوانين مميزين • وقد

قيل ان « العلند » هو أحد الحيوانات الطاردة القليلة التى يصطادها الماسيون ، فهو يطارد حتى يتعب ثم يطعن بالسهام • ومن الغريب أن قبيلة الماساى تأكل لحمه أيضا لانها تعده نوعا من أنواع البقر • وأما الحيوان الوحشى الآخر الذى تطارده قبيلة ماساى ويؤكل لحمه فهو الجاموس البرى الذى يبالغون فى تقدير لحمه وجلده معا • ولكننا علمنا « ان الجاموس لا يعد من الحيوانات الطاردة عند قبيلة ماساى • ومن المحتمل انهم ينظرون الى الجاموس البرى نظرتهم الى العلند ، على أنه نوع من الأبقار • واذا كان الأمر كذلك فان سبب صيدهم الجاموس البرى والعلند والتهام لحومها يكون واحدا ؛ وهو الاعتقاد فى أن هذه الحيوانات لا تختلف فى جوهرها عن الماشية ومن ثم يعد قتلها وأكل لحمها عملا مشروعا • فالنتيجة العملية ليس حولها أى شك فيما يبدو ، وان كان هذا التصنيف وفقا لعلم الحيوان يدعو الى التساؤل • وقد اصطنعت قبيلة « باهيما » ، وهى قبيلة رعوية أخرى تعيش أساسا على ألبان ماشيتها ، نفس النظام الذى يعتمد على تصنيف مشابه لملكة الحيوان ، فنحن نعلم « أن هذه القبيلة لا تأكل سوى أنواع قليلة من الحيوانات المفترسة ، وهذه الأنواع تتحدد تماما بتلك التى تدخل فى تصنيف الأبقار مثل الجاموس ونوع أو اثنين من أنواع البقر الوحشى ، والظبى والهرتبيس ، فى حين أن لحوم الماعز والشياه والدجاج وكل أنواع السمك يعد ، من ناحية أخرى ، « ضارة ويحرم أكلها على أى فرد من أفراد القبيلة تحريما كليا » • وربما كان السبب فى هذا هو أن هذه الأنواع من المواشى لا يمكن أن تعد من أنواع الأبقار ، وفقا لأى تفسير متحرر لأجناس البقر • ولما كانت قبيلة باهيما الرعوية لا تسمح الا بأكل القليل من الحيوانات المتوحشة ، فانها لاتهتم بعملية القنص ، على الرغم من أنها تصطاد الوحوش التى تبحث عن الفريسة متى وجدوها منهكة فى المطاردة • « أما قنص سائر أنواع الحيوانات المطاردة فهو متروك كلية للعشائر التى تشتغل بالزراعة ، وتحتفظ ببعض كلاب الصيد وتعيش فى غذائها على لحوم هذه الحيوانات » • وبالمثل فان لحوم أكثر الحيوانات

توحشا محرمة على بطون قبيلة « بانييورو » الراعية ، ومن ثم فانه قلما يشترك أفراد هذه البطون فى القنص ، اللهم الا اذا اقتضى الأمر صيد الأسود والنمور التى تبحث عن فريستها بين ماشيتهم « فالقنص اذن يقتصر على الأفراد الذين يشتغلون بالزراعة وهم يقومون بقنص الحيوان حتى يأكلوا لحمه » .

وربما كان السبب فى ازدراء أكل لحوم الحيوانات الطاردة عند القبائل الرعوية التى أشرنا اليها فى الحالات السابقة مصدره الاعتقاد فى أن الأبقار تضار على التو متى امتزج لحم الحيوانات الطاردة بألبانها فى بطون الرجال . ولكى يبعد الخطر عن الماشية فانه أما أن يمتنع الرجال عن أكل لحوم هذه الحيوانات كلية ، أو لا بد لهم ، على أسوأ حال ،أن يقضى الفرد منهم فترة بين أكل هذه اللحوم وشرب اللبن ، بحيث تكون المعدة قد تهيأت لاستقبال طعام جديد بعد أن تكون قد خلت من الطعام الآخر . والاستثناء الشاذ الذى يستلفت النظر من القاعدة العامة ، وهو سماح هذه القبائل لأفرادها بأكل لحوم الحيوانات التى تشبه الأبقار ، يشير الى تشابه مع العادة العبرية القديمة التى تميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة . فهل يمكن أن يكون هذا التمييز بين الحيوانات المتوحشة على أساس النجاسة والطهارة ، قد نشأ فى مرحلة متخلفة للقبائل الرعوية التى ميزت فى عالم الحيوان بين الحيوانات الشبيهة بالماشية المنزلية ، وتلك التى تختلف عنها ، ثم وضعت قانونا ذا أهمية بالغة يرتكز على أساس هذا التصنيف ، وهو أن النوع الأول يباح أكل لحمه والآخر يحرم أكل لحمه ؟ ان القانون الحقيقى الذى يميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة كما يتمثل فى الأسفار الخمسة الأولى معقد كل التعقيد فيما يبدو ، بحيث لا يسمح لنا باللجوء الى هذه الاستنتاج البسيط . ومع ذلك فان الأساس الأول لهذا القانون يعد بقية غريبة لمعتقدات بعض القبائل الافريقية التى تناولناها بالبحث . « هذه هى الحيوانات التى تأكلها : الثور والخروف والنعجة وذكر الأيل والغزال والسرو والنعاج البرية

وبقر الوحش والشمواة وكل حيوان ذى أظلاف مشقوقة ومجتر تأكل لحمه » • فهنا نجد أن اختبار مدى ملاءمة الحيوان لأن يكون طعاما للانسان تعتمد على صلته بالحيوانات المجترة الأليفة • وبناء على هذا الاختبار فان الغزلان والبقر الوحشى تدخل ضمن الحيوانات الصالحة للأكل ؛ سليم للغاية ، تماما كما رأينا عند قبليتى « ماساى » و « بوهيما » اللتين تسمحان ، بناء على هذا الأساس ، بادخال أنواع متعددة من البقر الوحشى ضمن غذائهما ، وان كان العبريون أكثر حرية فى تصنيف الحيوانات التى يسمح بأكل لحمها من الماسيين • واذا كان هذا التصنيف العبرى قد نشأ أصلا ، فيما يبدو فى ظروف رعوية صرف ، فانه من المحتمل أنهم قد وسعوا نطاقه ليواجه احتياجات الشعب الزراعى وذوقه •

والى هذا الحد أكون قد حاولت أن أقتفى أثر التشابه المحدد بين العادات الافريقية التى تتصل بغلى اللبن ونظام مزجه باللحم ، وفيما يختص بالتمييز بين الحيوانات من ناحية طهارتها ونجاستها وصلاحيتها وعدم صلاحيتها للأكل • واذا كانت هذه الموازنات ترتكز على أساس سليم ، فانها تنحو الى اثبات أن العادات العبرية التى تختص بكل هذه الأمور قد نشأت فى المرحلة الرعوية من مراحل مجتمعهم • ومن ثم ، فانها تؤكد ما ورد فى تراث الاسرائيليين القومى من أن أسلافهم كانوا رعاة بدوا يتجولون بقطعان ماشيتهم وأغنامهم من مرعى الى مرعى طيلة عصور طويلة قبل أن يستقر أحفادهم ، بعد عبور نهر الأردن وهبوطهم من مرتفعات موآب المعشبة ، فى أرض فلسطين الغنية ، ويعيشوا حياة الزراعة المستقرة •